



مات الشاه فهل يعيش الخميني؟

أنيس منصور

الخميني

يعيش الملوك مرتين : مرة وهم على العرش ،
ومرة وهم يحملون بالعودة إليه .
ويموت الملوك مرتين : مرة عندما يسقطون من
العرش إلى الأرض . ومرة عندما ينزلون تحت
الأرض .

وقد تعذب شاه إيران بكل ذلك . فكانت طائرته المعلقة بين
العواصم نعشا طائرا . بلا جنازة ولا مشيعين . وكلما ابتعدت الطائرة
عن البلاد الإسلامية أحس الملوك والرؤساء أن العدوى قد
ذهبت عنهم . وأهم في أمان من كل الذي أصاب الشاه . وكان
ذلك امتحانا لقوة الرؤساء والملوك وشجاعتهم وإيمانهم . وقد رسبوا
في الامتحان . إلا رجلا شجاعا مؤمنا : أنور السادات ! .
والشاه الآن بين يدي الله وبين أفلام المؤرخين ومشاطط الجراحين وخصاص
المتعطين إلى ماله ودم أسرته . ولكنه فقد أهم ما في الحياة : القدرة على
أن يدافع عن نفسه .

لقد سألت شاه إيران قبل وفاته بشهر واحد : إن كان يستطيع يوضح أن
يدى برأيه في حكمة التاريخ . وإن كان يستطيع أن يكون القاضي على نفسه
واغامي عن أخطائه والمتهم من الجميع والمستقم الجبار من ظلموه . فقال

في . ونشرته وهو ما يزال حيا : إنني لم أحسن التدبير . أعطأت في اعتمادى
على الأمريكان . وكنت أعصى أعصى أعصى ! (قلنا كثيرا حتى جيل إلى أنه
يقصد أنه أصبح كذلك فأطلت النظر إلى عيشه !) وإنني حاولت أن أقفز
بشعبي بدلا من أخطوبه . وحاولت أن أنكر الجغرافيا والتاريخ . فأجعل
إيران الفارسية الآسيوية دولة أوربية غربية ! وغلطة أخرى لاحلة لي فيها :
أننى وزّعت العرش وسوف يرثه ابني من بعدى . وبسبب خوف على ابني
حملت عنه أعباء كثيرة . ونحست طرقا غير مطروقة . وحاولت
المنسجّل . وهو أن أغير الذي لا يتغير . وأن أبذل الذي لا يبذل . أقصد
أن أختار لابني أحسن المستشارين . وأن أفرض فيهم الإخلاص المطلق
للجلوس على العرش - وكان ذلك نوعا من المنسجّل . وأعترف أنني
فشل !

وقال في شاه إيران ولم أنشر ذلك : أكبر غلطة أنني ابتعدت عن
الناس جدا . فرأيهم صفوا . ولم أتبين أنهم رأوني
كذلك . ولم أتبه إلى أن الحاكم عندما يخلق المسافات
المخاللة بينه وبين الناس يغري كثيرين من الذين حوله . بأن
يشغلوا هذه المسافة . ويتحلوا صفاته ويستخدموا
أدواته . ويتبعوا لسانه . فيكون هناك أكثر من حاكم
وأكثر من ملك وأكثر من عرش . أكبر غلطة . لم
أعرفها إلا أخيرا . وعلى الرغم من أنني قلبت في التاريخ
كثيرا . وعرفت صناعة العروش ودرست الترحلق على
العرش والتسلل إليه . فإن هناك حقيقة هامة جدا : هي
أننا لا نتعلم من التاريخ . بل إن التاريخ قد علمنا ألا نتعلم
منه . ولذلك فسوف تتكرر كل الأخطاء . ولو عدت أنا
إلى العرش لوقعت في نفس الأخطاء . فأنا أحمل سلالة
بشرية مقترضة : الملوك وأولياء العهد !

وقد نشاءم شاه إيران مرة واحدة . وحاول بعد ذلك أن ينسى . فعندما
خرج من إيران سنة ١٩٥٣ بتوجيه من المخابرات الأمريكية . أفض أن ذلك
سوف يحدث مرة أخرى . وقال لي إن هناك أسطورة فارسية أو نبوءة فارسية
تؤكد هذا المعنى . وأن قارنا للكف في سويسرا عندما كان طالبا . قال له
بالخوف الواحد : ينجو جوك من بلادك مرة . وتخرج أنت منها مرة
أخرى !

وعلى الرغم من أن خروجه من إيران في المرة الأولى كان ثلاثة أيام . فقد
ظلت هذه النبوءة تعاوده في أحلامه . فقد خرج في إحدى ليالي سنة ١٩٥٥
عندما رأى في نومه أنه سقط من طائرته بغير مظلة واقية . فلما التقى الشاه
بمندوب المخابرات الأمريكية كرمت ووزّعت روى له هذا الحلم . ولم يسترح
الشاه إلى رد مندوب المخابرات . فقد قال له : إذن فأنت في حاجة إلى
دروس في استعمال المظلات !

ومرة أخرى بعد ربع قرن ظهر في طهران فجأة ضابط أمريكي كبير هو
الحبرك هاويز . هذا الضابط هو الذي تصيح الشاه بأن يخرج من إيران .
ويخرج الشاه ولم يعد .

ولم ينس الشاه أن الأمريكان هم الذين أعادوه إلى العرش . وأنهم الذين
أسقطوه من العرش . ولم ينس الشاه أيضا أن ثمانية من رؤساء أمريكا قد
اعتبروه صديقيهم الأكثر في الشرق الأوسط . ولم ينس الشاه أنه صديقهم .
ولم يفلح الشاه في أن يقهم أن الصداقة كالعداوة درجات . وأنها أيضا مزاج
شخصي ومزاج قومي .

فهل كان هنري كيسنجر أول من نبأ بـ نهاية الشاه ؟ وما فعله عندما سافر الرئيس نيكسون ومعه كيسنجر إلى طهران في ٣٠ مايو سنة ١٩٧٢ استطاع كيسنجر بعينه الذاتية أن يقول : إن الواقع أماننا امبراطور اسما . طاعبة فعلا !

واستطاع بانف النسر أن يشم رائحة الموت . فقد أبصر أن شاه إيران جثة شاه سابق !

ولكن بعد ثورة الإمام الخميني استحق الرئيس نيكسون ومشاره كيسنجر كل اللوم . ففيها يعرفان أن الشاه ملك فاسد تماما . وكان من الواجب عليهما أن يتخلصا منه . ولكن كيسنجر في كتابه « سنوات البيت الأبيض » يدافع عن ربه نيكسون فيقول : كان لابد من الاعتراف على الشاه . ففي ذلك الوقت كان محضر ١٥ ألف خبر سوفييتي . وفي سوريا أسلحة سوفيتية . كما أن الإنجليز قد انسحبوا من شرق السويس معتلين أنهم غير قادرين على حماية الخليج وتركيا واليونان . ولم يبق لأمريكا من أصدقاء في المنطقة سوى إيران والسعودية . واعتمدت أمريكا على سياسة ذات سائقين : أحدهما في طهران والأخرى في الرياض . والسوفييت يرحلون حول المنطقة . ثم . وقال كيسنجر : ليس شرفا عظيما لأمريكا أن نهجم الشاه حليفها ٣٧ عاما ! أما الرئيس كارتر فعندما زار إيران . وكان ذلك يوم رأس سنة ١٩٧٩ . فقد أمسك كأس الشماليا ورفضها في صحة الإمبراطور والإمبراطورة الحميلة . معلنا أن إيران جزيرة أمان في طوفان من القلق .

فهل كان الرئيس كارتر يعرف الحقيقة . ولكن المناسبة السعيدة دفعته بإغماطة إلى حدود الكذب ؟ هل الإدارة الأمريكية كانت لا تدرى بالثورة الحبيسة في إيران . سيما الأجهزة الأمريكية كانت تستعد لإخراج الشاه والاتصال بالإمام الخميني ؟

لقد أريق خبر كثير في الإجابة عن هذا السؤال في كل صحف العالم ولكن الشاه كان أسبق الجميع عندما نشر فصلا من كتابه « رد على التاريخ » منها أمريكا بأنها عدته وأسقطته وطردته وبعته للإمام الخميني وكانت صفقة خاسرة . فقد دفع الشاه ٢٦ ألف مليون دولار غنا للأسلحة المتطورة للجيش الإيراني . ولن يدفع لها الخميني دولارا . ولن يبيع لها برميلا . وحاولت أمريكا أن تفتح بابا سريا إلى مجلس الخميني في باريس . ولكنه أغلق في وجهها الباب والشاك . واحتجز خمسين رهينة وشيا آخر : كبرياء أمريكا !

وقبل وفاة شاه إيران بأربعين يوما بعث إلى الرئيس السادات بتقريرين طويلين .

الأول عن : الأوضاع في إيران قبل مغادرة الشاه - أي لماذا غادرها ؟

والثاني عن : الأوضاع في إيران بعد مغادرة الشاه - أي هل يعود ؟

والثانيان في أكثر من مائتي صفحة من التحليل الوثائق الذي كتب بأعصاب جديدة . فقد استعاض الكاتب عن القلم بمشرط جراح عجيبي . جراح اختار أن يمزق جسد إنسان حي . فلا يهزه المريض ولا يقلقه صراخه . أو يحول أقرابه !



▲ وكانت هذه الصور . وأخيرا مع . آخر لقاء قام به الشاه جالسا قبل رحيله الأخيرة

ولقد تغيرت الإدارات الأمريكية . وتلوعت وسائل الضغط الدولية في الشرق الأوسط . وحدثت حركات تقلبات بين المفردات السياسية في القاموس . وظهرت للقاموس السامي طبعات جديدة متفحة في واشنطن وموسكو ولندن وباريس . ولكن الشاه لم يتابع التغيرات السياسية من حوله . فبقى في مكانه . وتحرك كل الذين حوله بما في ذلك الأمريكان . وهي غلظة . باعتزله .

مات الشاه فهل يعيش الخميني؟

ومن الطبيعي ألا يرفع شاه إيران عينيه عن كل ما يجري في بلاده. فقد كان يلاحق الأحداث بالإذاعة والصحف والتلفزيون والأعوان يقولون إليه آخر التطورات. وكان يؤمن إيمانا تاما بأن له أعوانا كثيرين غير أنه ليس قادرا على قيادتهم. فهو بعيد جدا. وهو مريض جدا. وكانت كل القوى مربوطة به. فهو مصدر السلطات. وبغيره وحده: لا سلطة ولا قوة ولا أمل في الثورة!

وقد اعترف شاه إيران للرئيس السادات بأن أحد أصدقائه قد نصحه بأن يصدر أمرا إلى سلاح الطيران الإيراني فيعادر البلاد ويهبط في بلد صديق. لعل الشاه يستخدم هذا السلاح القوي. بعد ذلك فيط به مرة أخرى فوق العرش. وتكون عودته هذه المرة بتدبير منه هو، وليس بتدبير الأمريكان.

وقال الشاه للرئيس السادات: إنها فكرة رائعة... لولا أنني لا أستطيع أن أصدر أمرا واحدا لسلاح الطيران: فسلاح الطيران يتلقى أوامره من واشنطن!

وتد عرف الشاه هذه الحقيقة في السنتين الأخيرتين من حكمه. أما سبب ذلك فقد قاله الشاه في نشرته: لأنني كنت أنصرف مستقلا عن الإرادة والإدارة الأمريكية!



ومنذ اللحظة التي جاء فيها إلى مصر كانت هناك نظرتان: أن الرجل صديق ساعد مصر في محبتها...

وأنه شخصية تاريخية. كان ملكا سلطانا مسلطا جبارا متجبرا. ولذلك لم تنوقف الصحف - مجلة «أكوير» أكثر نصيا - عن نقد سياسته وفلسفته وحكومته وحكمته. فقد عرضنا في مجلة «أكوير» لكل الكتب التي هاجمته. وتابعا سقوطه التدريجي من السماء إلى الأرض...

بل إن الشاه قد وعد الرئيس السادات بأن يضيف فصلا جديدا أخافه إلى مذكراته سوف تنشر في مجلة «أكوير». ثم وعدني مرة أخرى... بل وتناقشا في المبلغ الذي سوف إدفعه لتحويله إلى الجمعيات الخيرية! ولأن الشاه ضائع التاريخ الإيراني. وأحد معالم الشرق الأوسط. وأنه لن ينهي بالوفاة. فاللوك زلازل وبراكين. لما بعدها من آثار طويلة عريضة عبيقة دائمة. وكان الشاه يعرف ذلك ويراه طبعيا. فليس شخصا عاديا. بل إنه بفضل ألف مرة أن يحاكمه التاريخ حيا. من أن يتجاهله حيا. ويستأنف محاكمته ميتا!

وليس سرا ما نشرته لجنة العفو الدولية من أن كرامة الإنسان لم يهدر في دولة كما أهدرت في إيران - فقد أدخل الشاه ألوف الخصوم في السجون والمعتلات. وكان خصوم الشاه من الذين هاجروا من الريف إلى المدينة. فعجزوا عن التوافق مع المثيرات الاقتصادية. وكان خصومه من رجال الدين الذين جردتهم من أملاكهم ومن سلطانهم. ثم قدم لهم حبيبات المعجوم

العتيق عليه... فقد «تفرجت» إيران وتعت وتخلت وأبعدت عن الإسلام!

وجاء من باريس آية الله روح مرجع الحق الإمام الموسوي الثاني عشر: الخميني...

يفتح بالدين ما أفسدته السياسة. ويعالج بالرحمة. مانوكه البطش فيطرده ملكا طاعية. رافع القصور. مروج السجون...

ولكن الطريق إلى القوة واحد... فقد سلك الإمام الخميني نفس السيل... فأصبح هو الآخر آية الآيات وإمام الأئمة وروح الأرواح:

أصبح الشاه الجديد...

وتسبحت إيران طوائف وشيخا وأحزابا. وعناصر سياسية ودينية ورجية... وتعلقت المشائق وسالت الدماء. وامتلات الشوارع بالمتظاهرين. وفرغت الدواوين والمؤسسات والآبار من العاملين...

إن حكم الشعب الإيراني على الشاه. كان أسرع من حكم التاريخ... ومن السابق لأوانه معرفة ما قدمه الشاه لشعبه. وهل كان الخميني لادحا...

ولكن من المؤكد أن حكم الشعب الإيراني على الشاه الجديد صاحب الناج الأسود كان واضحا. فالإمام الخميني لم يقدم لإيران شيئا. ولكنه عاقب الشعب الإيراني على غلطته: أنه عاش في ظل الشاه. ولذلك يجب التخلص منه. ثم على أنه لا يريد أن يكون الشاه الجديد...

ومن المؤكد أن شاه إيران قد مات. ولكن ليس من المؤكد أن آثاره سوف تختفي في عام أو في عشرين عاما...

ومن المؤكد أن الإمام الخميني لم يمت. ولكنه لم يعيش أيضا. فلم يقدم للشعب باسم السياسة التي يجملها شيئا. كما أنه لم يقدم باسم الدين الذي يعرفه شيئا أيضا...

إن إيران تعيش اليوم بلا ملك. وبلا إمام... بلا سياسة... وبلا دين...

فإذا كان الإرهاب هو السياسة فأين هو الدين. وإذا كان الدين هو الإرهاب فأين هي السياسة؟



وعلى الرغم من أن الشاه كان يتباهى كثيرا بعبارة كتبها في مذكراته وهو طالب في سويسرا. فإنه قد نسبها مع أشياء أخرى كثيرة. قال وهو طالب:

انضباط بلا ديمقراطية منهي الاستبداد. وديمقراطية بلا انضباط. منهي اللصوص!

أي لابد من الانضباط في كل الأحوال. ولكن تطبيق الشاه لكلمة الانضباط هو الذي اعتزمت عليه لجنة العفو الدولية!

وكان الشاه قاسيا على نفسه. فقد كان متضيضا تماما. له عادات وساعات لا يغيرها. وكان قادرا على إخفاء الله. فقد كان يقاها. حاشيته بالذهاب إلى المستشفى. دون أن يشكو. لأنه يرى أن المرض ضعف.

وعجب ألا يدور ضعيفا حتى لا يتشجع خصومه. أو يبرز الأجهزة التي تغلدى على سلطته. وعندما أطلق عليه الرصاص فأصابته واحدة في خده وفي شفته. نزل الدم منه. ولكنه ذهب إلى المستشفى العسكري. وروى

الحادث حتى لا يتصور الشعب أن إصابته خطيرة. وعندما أصيب بالمرطبان لم يشأ أن يطلع أحدا على ذلك. وقد عرفت زوجته الإمبراطورة فرح

محمديه. ولكنها لم تجرؤ على مصارحته...

وفي مستشفيات أمريكا ومستشفى المعادي يشهد له الأطباء بأنه لم يقل
أه... وأنه لم يصرخ...

ومن العجيب حقاً أن يطلب الشاه إلى ابنه وفي العهد أن يصور العملية
الجراحية لاستئصال الطحال. لكني بראה الشاه بعد ذلك. فابنه. هو
الأخر. كان يزاحم الجراحين ويلاحق أيديهم داخله خارجة في بطن أبيه
ويعطلهم... فقد كان هو الآخر منضبطاً تماماً. أمره أبوه. فقد الأمر.
وقد نسى تماماً أن المريض الجريح الدامي هو أبوه!

٦٦٦

وشي استطاعة الإنسان أمام الموت أن يتخلف فيقول مثلاً:
عندما يولد الإنسان يكون طوله نصف متر. وعندما يموت
يكون طوله متراً ونصفاً. فهل كل هذا العذاب من أجل
متر واحد؟!

نعم من أجل متر ومن أجل ملليمتر من المكان والزمان...
والشاه عندما التفت إلى الأطباء الدائنين الحائرين حوله
قال لهم:

لا أريد أن أعيش حياة زائفة مثل نيتو!

للأطباء يعالجونه بكل ما في استطاعتهم. يغيرون له الدم... ويقتلون
الخلايا المريضة ومعها الخلايا الحية أيضاً. وكلما انتعشت الخلايا المريضة.
استخدموا سلاحاً كيميائياً جديداً للقضاء عليها. فيقتلون خلايا صحيحة
أخرى... فالشاه يعيش حياة كيميائية - أي حياة مصطنعة!
فهو لا يريد أن يطول علاجه أو مرضه. مثل الرئيس نيتو. ولكن ليس
معنى ذلك أنه يريد أن يموت. إنما يريد من الأطباء أن يتفكروا بسرعة على
علاج أفضل.

ولو قيل للشاه: هل تحب أن تلغ السعير مثل نيتو أو اثنتين مثل برجيتيف
أو السبعين مثل ريجان. ونفس العلاج الكيميائي؟... لو افق قوراء...
فالإنسان لا يختار الموت إلا بأشأ. والشاه لم يعرف اليأس. فهو لم يجر
الموت. إنما طلب إليهم أن يتفكروا على عذاب أخفى... وعلى حياة
أطول!

وكما اختلف الأطباء في موت الشاه. اختلف المؤرخون في سقوطه.
فالأطباء يرون أن السرطان لم يقتله. إنما العقاقير لعلاج السرطان هي التي
قضت عليه...

فالشاه مريضاً: قتله الدواء. ولم يقتله الداء!
والمؤرخون يرون أن إيران لم يقتلها الفقر. إنما قتلها التطوير
العنيف الذي فرضه الشاه على الشعب. فقد تآزرت إيران لا لأن
الشاه راحق أعصاب الشعب. إنما لأنه أعطى الشعب الكثير من
المسكنات...

فالشاه طبيباً: قد أجرى عملية جراحية ناجحة لإيران. ولكن
المريض مات!...
فالعلاج وليس المرض هو الذي كان السبب في ثورة إيران.
والوفاة العاجلة للشاه!...

٦٦٦

وانتهى كل شيء...

وكان ذلك إحساس الشعب المصري يوم لجأ إليه ملك الملوك الذي خباقت
به الأرض. فلم يجد مكاناً يتوجع فيه أو يدفن به...
جاء إلينا ملكاً بلا عرش ولا طاووس ولا حول ولا طول ولا مصلحة لنا
عنده. إنما لدينا عظم الامتحان له... ونريد أن نؤكد له عميق شعورنا...
وصديق إيماننا بالله وقضائه وقدره... وانكشف أشقاء لنا: ملوك
وأمرام ورؤساء يزعمون أنهم اتخذوا الإسلام ديناً والعروبة قومية.
والسباحة خلقاً. والكرم ضيافة...

انتهى كل شيء...

وقد رأيت شاه إيران على عرش الطاووس سنة ١٩٧١ في مهرجان
قورش العظيم الذي أنفق عليه ٥٠٠ مليون دولار. فكانت هذه
هي نهاية البداية!
ورأيت الشاه في أسوان بعد خروجه من إيران. فكانت هذه هي
بداية النهاية...
وصلت عليه في مسجد الرفاعي: فكانت نهاية النهاية...

وشي عسى وفي أخفى ذلك الحديث القدسي الذي سبقه الله لنا
يوم القيامة: لمن الملك اليوم؟...

ولن يرد أحد.

فبمد الله على سؤاله: لله الواحد القهار!...

